ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم:
التَّربية على المواطنة أنموذجًا

Didactics of the Arabic Language and the Question of Values: Citizenship Education as a Model

د. بدر الحمري

جامعة عبد المالك السعدي

المغرب

argumentationb@gmail.com

ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم:
التَّربية على المواطنة أنموذجًا

د. بدر الحمري

ملخّص:

يتناول هذا المقال إشكالية ديداكتيك اللغة العربية وسؤال القيم من خلال أنموذج التربية على المواطنة، منطلقًا من ضرورة معالجة هذه الإشكالية بحسٍّ نقدي رصين يُسهم في تجديد البرامج والمناهج المرتبطة بتدريس القيم بصفة عامة؛ وهي تدريسية لا تخضع للفصل الضيّق بين النّظري والعمليّ، ولا للتوظيفات الظرفية التي تُغفل الأسئلة الحضارية الكبرى للإنسان، وإنما تجمع ما بين النظر والعمل، من أجل تجويد أهداف الدرس اللغوي العربي.

ويقترح المقال جملة من الإجراءات الديداكتيكية الكفيلة بالانتقال من مجرد تلقي المعرفة اللّغوية إلى الإسهام في بناء الإنسان المواطن المنفتح على إشكالات القيميّة للحضارة الإنسانية، فضلا عن التربية على المحاججة الناقدة في تمحيص المعارف وحسن استخدام العقل. وهي إجراءات تستدعي البحث عن منهج سليم ورؤية واضحة في بناء المواطنة، خاصة أن التربية على قيمها، في سياق مواجهة التفكير المتطرف وخطابات الكراهية، تُعد من أعقد الورشات التربوية وأكثرها حساسية في الزمن المعاصر.

الكلمات المفاتيح: ديداكتيك، اللغة العربية، القيم، المواطنة، التربية، الحضارة الإنسانية، المحاججة النّاقدة.

ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن والعشرون - السنة السابعة ـــــــ

ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم ـــــــ

كانط "تمنع الإنسان من الانحراف عن هدفه النهائي، وهو الإنسانية، بسبب رغباته الحيوانية"[1]. هذا الميل نحو الإنسانية والرسوخ عليها، هو ما يعطي للدِّيداكتيك تقنيات لتنظيم التعلّم عند المتعلمين بهدف بلوغ المرامي السَّنية في التكوين العقلي أو الوجداني أو الحسي الحركي، تسعفه في الانسجام مع سياقات حضارية متعددة، ومنها الاندماج الاجتماعي، و تجسيد ما جاءت به التوجيهات التربوية الخاصة بتدريس اللغة العربية، ومنها : "التركيز على المتعلم قصد تمكينه من الثقة في النفس والمشاركة الفعالة، والشعور بالمسؤولية، والقدرة على تدبير تعلمه، وهذا يستدعي إعطاء الفرصة في التفكير فيما يتعلم، وكيف يتعلم، ولماذا يتعلم، وهو ما يتطلب تجاوز بعض الممارسات التقليدية في التدريس مثل الإلقاء المباشر، والاسترجاع دون فهم واستيعاب، ودون القدرة على التطبيق "[2] بالإضافة إلى "التركيز على الأنشطة التي تهدفُ إلى تمكين المتعلِّمات والمتعلِّمين من مهارات التحليل والنَّقد وحل المشكلات، وهي مهارات تقع في صلب تهيّؤ التلاميذ للحياة، تماشيًا مع منطق التدريس بالكفايات"[3]. في هذا السياق نطرح السؤال الآتي: كيف تسهم تدريسيَّة اللُّغة العربية في التربية على قيم المواطنة؟

3- من تدريسيَّة اللُّغة العربية إلى التَّربية على قيم المواطنة:

إنَّ السؤالَ السابق ينقلنا من تلقي المعرفة اللغوية إلى بناء الإنسان المواطن، وهو سؤال يبحث في الطريقة والمنهج بوضوح؛ إذ تُعَدُّ التربيةُ على قيم المواطنة، من خلال مواجهة التفكير المتطرف وخطابات الكراهية، من أصعب الورشات التي يمكن التفكير فيها تربويًّا. فالأمر يتصل هنا أساسًا بأطفالنا وشبابنا، وهم الفئةُ العمريةُ الأكثرُ رهافةً وإحساسًا بأشياء العالم والوجود من جهة، والأكثرُ تقلبًا وانقلابًا عليها من جهة أخرى. خاصةً أن الميثاق الوطني للتربية والتكوين، مثلًا، في القسم المتعلق بالمبادئ الأساسية، قد أكد أن نظام التربية والتكوين بالمملكة المغربية يهتدي "بمبادئ العقيدة الإسلامية وقيمها الرامية لتكوين المواطن المتصف بالاستقامة والصلاح، المتسم بالاعتدال والتسامح، الشغوف بطلب العلم والمعرفة، في أرحب آفاقهما، والمتوقد للاطلاع والإبداع، والمطبوع بروح المبادرة الإيجابية والإنتاج النافع"[4]. هي عناصر وثيقةُ الصِّلة ببعضها بعضا: هويةٌ إسلامية قائمة على الاستقامة والصّلاح، لا تميل إلى أقصى اليمين ولا إلى أقصى اليسار حتى لا تسقط في معضلة التطرف، بل هي هويةٌ معتدلة ومتسامحة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا من خلال الشغف بالعلم والمعرفة. وبالتالي، فإن الميثاق يؤطر الهوية ويؤسسها على العلم والمعرفة لا على ضدهما، دون إغفال الإبداع المنطلق إلى آفاقه الرحبة، المرتبط بالمبادرات النافعة؛ بما يفيد ضمنًا استبعاد المبادرات غير النافعة التي لا تسهم في تكوين المواطن المتصف بالاستقامة والمنفتح على الحضارة.

ومن هنا، يجب أن تكون تدريسيّة اللّغة العربيّة منسجمةً تمامًا مع أهداف الميثاق الوطني للتربية والتكوين. ويبقى السؤال مطروحًا حول المنهج والطريقة، أو القواعد التي ينبغي سلوكها لتحقيق تلك

1- إمانويل كانط، تأملات في التربية، ماهي الأنوار؟ ما التوجه في التفكير؟، المرجع السابق، ص50.

2- وزارة التربية الوطنية، التوجيهات التربوية وبرامج تدريس اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي، نونبر 2007، ص06.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- وزارة التربية الوطنية، الميثاق الوطني للتربة والتكوين، ص09.

ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم ـــــــ

الكتابية بنظيرتها الشفهية. وتتعزز هذه القراءات بتفريغ نتائج استمارة توجّهنا بها إلى عيّنة من المستجوبين"[1].

- أما إشكالية الأفق القيميّ الذي يُؤطِّر تحقُّق هذه المعارف، فتتجاوز الهم الديداكتيكي الذي يتحمّله المدرس أو المدرسة إلى ما تحمله البرامج من قيم المواطنة الفعلية، وما تستهدف تحقيقه بوضوح، مثل: تحمل المسؤولية، واحترام القانون، والعدالة، والمشاركة الاجتماعية. فهذه القيم تجعل المتعلّم يعيش ما يتعلم، ويستثمره في أفق حضاري وإنساني؛ "فلا يمكن تطوير مناهج اللغة العربية دون اهتمام بمدخل القيم في كل المكونات والأنشطة بدءًا من النصوص والدعامات والمؤلفات المختارة، وأنه لا بدّ من مساهمة جميع الأطراف الفاعلة في الحياة المدرسية" [2]، لأن الأنشطة الموازية في فضاء المدرسة تربي المتعلمين على قيم جمالية ومعرفية وتواصلية تمكنهم من الانخراط في الحياة الاجتماعية واكتساب كثير من القيم المواطنة.

4- المحاجّة النَّاقدة والتربية على المواطنة:

إنّ المطلوب من التربية ليس المعرفة ولا التفكير في صيغتهما المجرَّدة من كل قيم، لأن ذلك سيقودنا إلى معضلات التعليم التقليدي القائم على التلقين، وبالتالي يكون تعليمًا ناقصًا. إذ يجب أن تسير التربية التي نريدها اليوم، وحتى لا نسقط في التطرف أو العنف أو ما شابههما، في اتجاه المحاجّة الناقدة، أي تربية قائمة على منطق الحجاج والتفكير النقدي. وفي هذا السياق، لا بأس أن نستشهد بقول الفيلسوف وأستاذ المنطق الأمريكي ماثيو ليبمان **(1923-2010)** "إنّ التربية التقليدية تتضمن تفكيراً؛ بيد أنّ نوعية ذلك التفكير [..] ناقصة [..] فالضرورة ليست مجرد التعليم من أجل التفكير، بل تعليم من أجل تفكير ناقد"[3]. صحيح أن التّطرف الفكري يمكن مواجهته بالتفكير، لكن بأيّ نوع من التفكير؟ صحيح أنّ التطرّف الفكري يفكر أيضًا، غير أنه يفكر في خراب الأمم وهلاك الناس وطمس الهويات. إننا في حاجة إلى تفكير يحاجّ وينتقد، أي يفحص يقينياته من جهة، وما يتلقاه من جهة ثانية. فالحياة ليست سوى محطات من التفكير المحاجّ الناقد لتصوراتنا وأفعالنا، حتى لا تسوء الأمور أكثر فأكثر.

في هذا السياق، نذكر أن هناك العديد من التجارب الرائدة في مجال التربية على التفكير الناقد، من بينها تجربة أستاذة التربية وعلم النفس في جامعة كولومبيا، د. دينا كوهن، التي امتدت لأكثر من عشرين عامًا، حيث أجرت أبحاثًا عديدة حول كيفيات استخدام استراتيجيات الحجاج في التعليم منذ بداية تعلم الطفل

1- محمد آيت أحمد، التقويم التربوي في مادة اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي بين الاتّباع والإبداع، قراءات ومُقترحات، مجلة الديداكتيك للعلوم التربوية، عدد 05، 2025. https://journals.imist.ma/index.php/DidaSE/article/view/7508

2- لخلافة كريم، التربية على القيم في منهاج اللغة العربية بالتعليم الثانوي التأهيلي: الواقع والآفاق، مجلة مسالك التربية والتكوين، العدد الأول، 2020، https://doi.org/10.48403/IMIST.PRSM/massalek-v3i1.20965

3- ماثيو ليبمان، المدرسة والتربية على الفكر، ترجمة إبراهيم يحيى الشهابي، منشورات ورزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1998، 195.

ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم ـــــــ

الأساسية، والعلاقات التي يقيمها. ويقترح، في هذا السياق، التعريف الآتي: "التفكير الناقد هو ذلك التفكير الماهر والمسؤول الذي ييسّر الحكم الصائب"[1] لأنه:

- يرتكز على معايير بوصفها قاعدة أو مبدأ يستخدم في بناء حكم ما، في مقابل ذلك فالتفكير اللاناقد "تفكير متهافت وارتجالي وواه ومجازف وغير مبنيّ. وإنّ استناد التفكير الناقد على معايير يجرّنا إلى الاعتقاد في كونه حسن التأسيس مبنيّ وأفضل تسلحًا "[2]. أي معايير قائمة على الحجج تُسنَدُ بها آراؤنا. لكن ما هي العلاقة بين المعايير والحجاج؟

يقول ليبمان ماثيو "غالبًا ما تكون البناءات الذهنية التي نسكنها غير قادرة على مقاومة شديدة: يمكننا أن نوطد أركانها بتعلم البرهنة بمنطقية (فائقة). لكن لن يكون لذلك نفع كبير إذا ما كانت الأرض التي ترتكز عليها لينة واسفنجية. علينا أن نرتكز في مطالبنا وآرائنا وعلى كل ما يتبقى في فكرنا على أسس صلبة مثل الصخر. فالارتكاز على معيار ذي أسس متينة، هو وسيلة لإقامة فكرنا على قاعدة صلبة"[3]. في السياق نفسه يضع ماثيو قائمة مخصوصة لهذه المعايير، نذكرها بالترتيب الآتي:

- مقاييس.
- قوانين، ضوابط، قواعد، تنظيمات، تشريعات، أوامر، وصفات، توجيهات وتعليمات.
- وصايا، اقتضاءات، تخصيصات، شروط، حدود،
- اتفاقات، معايير، انتظامات، نظاميات، تعميمات،
- مبادئ، عروج، افتراضات، تعريفات،
- مثل عليا، نوايا، أهداف، مرامي، موضوعات،
- اختبارات، قناعات، نتائج تجريب،
- اختبارات، قناعات، نتائج تجريب،
- مناهج، طرق، سياسات[4].

تُعدّ هذه اللائحة بمثابة أدوات يمكن استخدامها في مسار تكوين الأحكام، فهي جزء من جهازنا العقلي. قد تبدو باهتة، لكن ماثيو ليبمان يرى أنها، في مسارات البحث، تعمل بطريقة ديناميكية وناقدة عندما تتوفر لدينا القدرة على استدعائها لتبرير ما يُقدَّم من آراء. فتقييم نتائج الطلاب، مثلًا، لا يتم إلا من خلال معايير يستند إليها المدرّسون، لا معايير حدسية، ولا بادّعاء أن المعايير غير ضرورية. هكذا يكون التفكير الناقد مسؤولية معرفية؛ وعندما نفعل ذلك مع طلابنا، فإننا نحثّهم على التصرّف بالمثل. "وعندما نوفّر لهم نماذج لمسؤولية فكرية فإننا ندعوهم إلى تحمّل مسؤولية تفكيرهم الخاص وبوجه عام، تحمّل مسؤولية

1- ماثيو ليبمان، المدرسة والتربية على الفكر، مرجع سابق، 267.
2- المرجع نفسه، ص267.
3- المرجع نفسه، ص268.
4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم ـــــــ

مرطبات لكل طفل. هذا مثال يوضح الإنصاف بصورة متزامنة. أما إذا أراد الأطفال ممارسة لعبة التخفي، فلا بد أن يمارسوا ذلك بالتداول حتى يكون الأمر منصفًا، أما فكرة أن يكون الجميع مغمض العينين في الوقت نفسه فتبدو غريبة وغير منصفة.

تمرين آخر: يمكن أن نسأل الأطفال السؤال الآتي: متى يكون بوسعنا أن ننجز عملا بالتداول؟

-بوسعنا – ليس بوسعنا – لا أدري

من الأجوبة المقترحة مثلا، الحوار الآتي:

- فانيسا: لويز، إني أكره أن أراك تحملين هذه الكتب الكبيرة الحجم وأنت ذاهبة إلى المدرسة! دعيني اليوم أحملها مع كتبي وتحملين أنتِ غداً كتبي وكتبك.
- جاك: لويز، لنغسل الصحون بالتداول، أنا أغسلها وأنت ترتبها.
- جان: حسناً لويز، لنتفرج التلفاز بالتداول. تختارين برنامجاً مدته ثلاثون دقيقة ثم أختار برنامجاً آخر.

هكذا يمكنُ أن نستخدم مع تلامذتنا معيار التّداول القائم على الإنصاف والعدالة، على أن نميز في "الفصل" بين مستويات قبول التّداول والأخرى غير القابلة له، هذه طريقة واحدة من جملة من الطرائق التي يمكنُ إحداثها في الفصل من أجل التربية على **التفكير النّاقد** على أن يساعد المعلّم المتعلّمَ في التعرف على ممارساته الخاصة واختيار المسلك الأفضل للوصل إلى النتيجة المنصفة والعادلة. وهكذا نحقق جملة من النتائج من خلال التربية:

- نمرّ من التَّعلّم إلى التَّفكير.
- من التّفكير إلى الاستنتاج.
- من الاستنتاج إلى الاقتراحات.
- من الاقتراحات إلى إصدار الحكم الصائب.

هذه الخطوات تتخللها كفايات البحث وبناء المفاهيم ومهارة الترجمة، وهي جميعها تساعد في بناء باحث يمتلك فكرًا ناقدًا ومهارات متعددة، فلا يمكن فهم نص أو خطاب دونها (مثل خطاب التطرف والكراهية أو التمييز العنصري). وحتى قطعة موسيقية رائعة يمكن أن تُفسد إذا عزف أحد الموسيقيين ضمن الأوركسترا من دون الالتزام بمعايير مقبولة.

ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم ـــــــ

قائمة المصادر والمراجع:

1- أوزي أحمد، المعجم الموسوعي لعلوم التربية، الدار البيضاء، 2006.

2- إمانويل كانط، تأملات في التربية، ماهي الأنوار؟ ما التوجه في التفكير؟ ترجمة: محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، ط1، 2005.

3- بناني رشيد، من البيداغوجيا إلى الديداكتيك، منشورات الحوار الأكاديمي الجامعي، 1991.

4- الحسن الوارث، طرائق تدريس اللغة العربية، بين تحديد المفهوم والممارسة الصفية، مجلة كراسات تربوية، العدد الثاني المحكم، فبراير 2016، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2016.

5- ستيوارت باركر، التربية في عالم ما بعد الحداثة، ترجمة سامي محمد نصار، الدار المصرية اللبنانية، 2007.

6- عبد الفتاح البجة، أصول تدريس العربية بين النظرية والتطبيق للمرحلة الأساسية العليا، دار الفكر، عمان، الأردن، 1999.

7- عبد الله علي مصطفى، تدريس فنون اللغة العربية، آرام للدراسات والنشر، دبي 1994. سعاد عبد الكريم الوائلي، طرائق تدريس الأدب والبلاغة والتعبير، دار الشروق، ط 1، 2004.

8- لخلافة كريم، التربية على القيم في منهاج اللغة العربية بالتعليم الثانوي التأهيلي: الواقع والآفاق، مجلة مسالك التربية والتكوين، العدد الأول، 2020، https://doi.org/10.48403/IMIST.PRSM/massalek-v3i1.20965

9- ماثيو ليبمان، المدرسة والتربية على الفكر، ترجمة إبراهيم يحيى الشهابي، منشورات ورزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1998.

10- محمد آيت أحمد، التقويم التربوي في مادة اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي بين الاتّباع والإبداع، قراءات ومُقترحات، مجلة الديداكتيك للعلوم التربوية، عدد 05، 2025.

11- محمد الدريج، عودة إلى تعريف الديداكتيك أو علم التدريس، مجلة علوم التربية، عدد 47، مارس، 2011.

12- محمد الدريج، ما هي الديداكتيك؟ مجلة التدريس، العدد 07، 1984.

13- محمد الهادي عفيفي، في أصول التربية، القاهرة، دار الأنجلو المصرية، 1978.

14- المكي المروني، البيداغوجيا المعاصرة وقضايا التعليم النظامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أطلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، 1993.

ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم ـــــــ